المتخيل التاريخي في شعر الشبيبي

م.د.ريم محمد طيب الحفوظي *

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/١٠/١٠ تأريخ القبول: ٢٠١٨/١١/١٣

المقدمة:

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد (ﷺ) وصحبه اجمعين وبعد:

اهتم النقاد بالمنهج التاريخي في الدراسات الأدبية وبخاصة المتخيل التاريخي الذي يمكن أن نعرفهُ بانه "العلاقة الشعرية المنجزة التي تنشأ من خلال العلاقة النشيطة والخلاقة مع حدث ما وتعطيه امتدادات كثيرة في الزمان والمكان وتخرجه من الوثوقية الى الهشاشة والنسبية"(١).

اما عبدالله إبراهيم فقد وضح مفهوم المتخيل التاريخي بانه المادة المشكلة بوساطة السرد وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية(٢)، فالمتخيل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي ولا يروج لها، وانما يستوحيها بوصفها، ركائز مفسرة للأحداث، وبذلك يكون المتخيل التاريخي قد خرج من اطار التاريخية التي تحمل في طياتها فترات تاريخية معينة الى نص أدبي يضم في طياته العناصر الفنية المعاصرة موضحاً الفكرة العامة في كتابة النص بالاتكاء على الحقب التاريخية المختارة(٣). ولعل هذا ما جعل من الشعر والدراسات الأدبية قيمة أدبية متميزة تميزهم عن غيرهم، اذ نجد التعبير عن الحقبة التاريخية للحكم العثماني في شعر الشبيبي جاء بطريقة شعرية معاصرة أخرجت الحدث من التاريخ الى نص شعري يجذب انتباه

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/جامعة الموصل .

(١) المتخيل الشعري أساليب التشكيل ودلالات الرؤية في الشعر العراقي الحديث، د.محمد صابر عبيد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ٧٥.

(٢) المتخيل التاريخي، السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، عبدالله إبراهيم المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ :١١.

(٣) المتخيل الشعري ، د.محمد صابر عبيد، ١٥.

القارئ وبالتالي فان المتخيل التاريخي في الشعر يعد مثالاً حياً على مظاهر التجديد الكتابي التي لجأ اليها بعض الكتاب والشعراء المعاصرين. [١]

والمقصود بالكتابة المتخيلة استحضار التاريخ وإعادة سرده بتوظيف العناصر الفنية المعاصرة من ذلك توظيف الشعر القائم على المزج بين لغة التاريخ ولغة الشعر المعاصر وإعادة تشكيل بنية زمانية مختلفة عن الزمن التاريخي وتكون تلك البنية قائمة على التكسر الزمني تداخل الحكايات داخل الشعر عدا تشكيل هيكلية شعرية متمثلة باستحضار الشخصيات المتخيلة الممزوجة ببعض الشخصيات المتخيلة من خيال الشاعر نفسه ليصبح بذلك هو المتحكم الرئيسي بمسار الحدث الشعري كله[٢].

ان فكرة الكتابة المتخيلة والاتكاء عليها تجعل الشاعر يعيش تجربة الزمن الذي يكتب عنه وبالتالي يسهل عليه التعبير عن ذاته من خلال الاحداث المنتقاة في اشعاره، ولعل هذا ما ظهر في شعر الشبيبي حيث عمد الى توظيف الاحداث التي كانت شائعة آنذاك التي تلائم الزمن الذي يعيش من خلال الرمز المتخيل الواضح، ومن تقنيات الزمن هو الاستباق الزمني الذي يشير الى قدرة الشاعر على امتلاك القدرة على تحريك الاحداث عدا حضور الحذف العلني والمضمن داخل المتن النصي الشعري وتبرز معالم المتخيل التاريخي في هذه القصيدة في قدرة الشاعر على تحوير الحدث المتخيل عن طريق سرد الوقائع بطريقة مغايرة لما ورد في كتب التاريخ[٣]، والملاحظ من خلال ذلك اهتمام الشاعر بنقل معالم الحدث بأدق تفاصيله لينقل القارئ بمشاعره الى فضاء المكان الذي يصفه وهذا ما لا نجده في كتب التاريخ.

الحدث التاريخي :

يمثل انعكاس الحدث التاريخي في شعر الشبيبي بعملية انصهار بين الواقع والخيال إذ أن الخيال يعمل على تشكيل عالم جديد يرتبط بقدرة الشاعر، بعكس المحاكاة

(١) ينظر: المتخيل السردي، د.عبدالله إبراهيم المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، د.ت:١٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٥.

(٣) ينظر: الهوية والسرد، بول ريكور، تأليف حاتم الورفلي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩: ص١٧٥.

التي هي أحداث وأشياء ترتبط بمحيطه، فالارتباط السيري يتمظهر في الذات بصورة جلية في شعره، إذ يعبر عن قدرته في ربط الحدث التاريخي مع الخيال الابداعي.

ولعل عملية الانصهار بين الحدث التاريخي والذي اطلق عليه ريكور الموضوعي والذات او قدرة المبدع على انتاج رموز ولغة تحول الواقع إلى دلالة وهو ما أشار إليه ريكور في كتابه[١].

العنوان في أي قصيدة لحظة بكر يصطدم بها المتلقي في عالمه بتأسيس نافذة يطل منها إلى متن النص الشعري، ولعل ما قدمته المدونات النقدية والأدبية في لحظة تقسيم انواع العنوان بالمتن في كونها علاقة جدلية تقوم على أساس إرتباط العنوان دلالياً بالمتن[٢]، أو أن العنوان يجسد بنية دلالية ووحدة لها خاصية وهو ما تجسد في الاطروحات السينمائية والتفكيكية والتأويلية[٣]، وما يمكن أن يتلمسه المتلقي في قصائد الشبيبي هو أن الحدث التاريخي يمثل عنوانا لقصيدة خماسية شكلت عنده اطاراً تداولياً يمكن عن طريقه أن يكون عنوانا كبيرا للقصيدة وهي طريقة قديمة يمكن ان نجدها في الشعر العربي القديم منذ تأسيسه.

فالمرجعية التي يمثلها الحدث بوصفه عنواناً يغذي نسيج النص ويكوّن هويته.

ففي قصيدة (في العراق)[٤]، نجد أن عنوان القصيدة (في العراق) لا يقوم على أساس الجمالية أو الدلالية في الشعر ولكن مناسبة القصيدة لها حضور أدى إلى تغّيب العنوان الأصلي مقدماً لوحات مرجعية عن أسباب مناسبة القصيدة.

فإعلان الدستور من قبل الاتراك عام (١٩١٢) مثَّل صدمة بالنسبة للشاعر العربي عموماً وشاعرنا بشكل خاص وهو ما يمكن ان نجده في ثنايا قصيدة الشاعر في إشارته إلى خيبات الأمل التي أحس بها الشاعر وهي نبض الشارع العراقي.

أما عنوان (طلائع الحرب العامة)[١]، إذ نجد في القصيدة انصهاراً واندماجاً بين مرجعية العنوان بوصفة بنية ايحائية من حيث التأكيد على حدث تاريخي وهو إرسال

(١) ينظر: الزمن والسرد، بول ريكور: ١/٦٩-٧١.

(٢) ينظر : سيمياء العنوان ، بسام قطوس، ٤٥.

(٣) ينظر: سيموطيقيا الاتصال الادبي، محمد فكري جزار، ص ٣٥.

(٤) ديوان الشبيبي: ٢١.

الشاعر في بعثة من المجاهدين العراقيين إلى مكان معين بوصفه هدف وضّحهُ المتن الشعري أيضاً من حيث الروح الحماسية والبطولة التي نجدها في المتن الشعري.

ولا يمكن ان يقتصر الحدث التاريخي على حالة الحرب والسلم، فإن قصيدة الوداع يرتبط العنوان فيها بلحظة تاريخية يسجلها انهاء الوجود العثماني في الاراضي العربية لذلك كان الوداع.

ولا شك ان العلاقة المضطربة بين احساس الشاعر القومي العربي وبين الهيمنة العثمانية يمكن ان نجدها في قصائد كثر يصور فيها الشاعر ثورة النجيفيين على الاتراك والتي تنتهي بإنسحاب الاترك وسيطرة الاهالي على الحكم في المدينة، فكان موضوع الفخر والمدح هو المهيمن على نسيج النص الشعري، ولايمكن ان تقف تضاريس الاحداث التي وقف بها الشعب العراقي ضد العثمانيين والتي كانت مرجعيات مهيمنة على القصيدة وعناوين ومناسبات تمثل هوية اكثر قصائده منها (يوم المدائن وتل السور) .. الخ .

ويمكن ان نضيف إلى هذه المرجعيات التي ارتبطت بمناسبة تخص ذات أو سيرة الشاعر أو أحداث ترتبط بالمجتمع العراقي بلحظة الشعور القومي العربي والذي ارتبط ولاسيما بدمشق والشام، إذ نلتمس ان معظم قصائده ارتبطت بالعلاقة بين دمشق والشام والعراق مثل قصيدة (دمشق وبغداد)[٢]، و(الهيام بين العراق والشام)[٣]، ولم تقتصر عناوين قصائده التي هي ذات مرجعيات تاريخية على الاحداث التاريخية السياسية فحسب، وانما نجد ان هناك مناسبات كثيرة كانت ترتبط بمواضيع تخص الطبيعة وعلاقة الشاعر بالطبيعة ولاسيما في قصائد (دجلة والفرات)[٤]، و(على ضفاف دجلة)[٥].

وإن كان الحدث التاريخي هو المهيمن على عناوين قصائد الشبيبي الا ان هناك عناوين ابتعدت عن المرجعيات الواقعية واتصلت بالمتخيل التاريخي ولحظة تكوين النص،

---

(١) ديوان الشبيبي: ١٨.

(٢) ديوان الشبيبي :٨

(٣) ديوان الشبيبي: ٧٥

(٤) ديوان الشبيبي: ٧١

(٥) ديوان الشبيبي: ٨٩

أي ان المرجعية الاساسية لها هي متن النص الشعري مثل قصائد (الشعر بين الحق والباطل)[١]، و(هم ثقيل على هذه الكتب)[٢]، و (خواطر فلسفية)[٣]، و(نظرة في الحياة)[٤].

وهناك عناوين للشاعر كونت بنية ذات دلالة تبتعد عن مرجعيات النص والحدث التاريخي مثل قصائد (السحر)[٥]، و (الايام)[٦]، و (تنازع البقاء)[٧]، والشباب الطائش)[٨]... الخ.

ولابد من القول ان معظم العناوين التي قدمتها قصائد الشبيبي، وان كانت ذات مرجعيات تاريخية، فإنها كانت تتحرك ما بين مرجعيات اجتماعية، وتاريخية، وسياسية، وكلها تصب وفق منظور علاقة الفن بالمجتمع.

ولعل هذا ما يمكن ان نصوره بأنه طريقة الشعر التي كانت تتجلى في بداية القرن العشرين والتي كانت تعالج موضوعات اجتماعية وسياسية.

الذات الساردة[٩].

لاشك أن الكتابة في السيرة لا ترتبط فقط بوصفها مذكرة شخصية الا عندما يتم انصهارها بالشعر، فتقدم لنا الذات الساردة رؤية جديدة تربط الذاكرة التاريخية بالمتخيل الابداعي الذي يحاول ان يتقنع بمفاهيم الواقع والحلم في بوتقة واحدة الا وهي الذات الساردة.

---

(١) ديوان الشبيبي:٦٥

(٢) ديوان الشبيبي:٩٦

(٣) ديوان الشبيبي:٢٠

(٤) ديوان الشبيبي:٦٨

(٥) ديوان الشبيبي:١٨

(٦) ديوان الشبيبي:٤

(٧) ديوان الشبيبي:٩

(٨) ديوان الشبيبي:١٩

(٩) المتخيل الشعري أساليب التشكيل ودلالات الرؤية في الشعر العراقي الحديث، محمد صابر عبيد، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، ط١، ٢٠٠١، ٧٥. وينظر: المتخيل السردي ، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، ط١، (د.ت)، ١٣٥.

وإذا أردنا ان نسلط الضوء على ما قدمته النصوص الشعرية للشبيبي من جوانب سيرية يتجاوز المسافة الزمنية بين الحقيقة والخيال، ففي قصيدة (في سبيل الشرق) يقول :

لَـــمُ يُبَـــقَ لَـــيِ إلاَ الُشَـــبُابُ وأنّـــهُ دِيبَاجّـــةُ ضَـــمُنَ ألاسَـــىُ ٱخُلاَقُهَـــاِ

نُزَلَـتَ بِجَيَرُتّـــي الهُمَـــومَ فلَـمِ تطَـقُ حَتَـــىَ نّـــزُلَنَ بَكـــاهِلِي فُاَطَاَقُهُـــاً

وكرُهَتَهَـــاِ وُمـــنَ العَجَائِـــبِ أننـــي لشـــديدُ ألُفتَهـــاّ كّرّهّـــتُ فِرِاقِهِـــا

أشـــتاق اطـــرح الهمـــوم ويقتضـــي ظمـــــائ إلـــــى الألآمِ أن أشـــــتاقها

ولربمـــا عـــرف المحبـــونُ ألتـــيّ تّجنـــي الشَـــقاء وأصَـــبحّوا عشـــاقها[1]

يسجل الشاعر في هذه الابيات الشعرية العلاقة الجدلية بين الجدلية التاريخية أو الحياتية وقدرته على سرد التفاصيل وربطها بمناسبات تجمع بين الامتاع الشعري والواقع التاريخي [2]، ولاسيما إذا كان الكاتب هو اديب أصلا، لأن الكتابة السيرية هي صورة من صور الحياة[3]، فسيرة تاريخ الحياة ما هي إلاّ ترجمة للحياة تكشف من خلالها عن قيمة تاريخية وفنية عالية حين ينجح الكاتب أو الاديب في اختيار اللمحات الانسانية إذ ترتبط بأساس تاريخي. فلحظة تخلص العرب أو الشعوب العربية من الاتراك تمثل الجانب السيري من العاطفة الانسانية والذي بدأ يشتغل على أساس العلاقة بين ذاكرة الشباب وهي في البيت الأول إذ يرمز بقوله (لم يبق لي الا الشباب).

وهو ما يمكن ان نتصوره من أيام الشباب التي قضاها الشاعر في ظل الدولة العثمانية، فبقاء الشباب ما هو الا حالة من اليأس والأسى التي كانت تعبر عن لحظة وداع لذلك العصر وبداية عصر جديد، فالشاعر هنا يعيش حالة من التأزم والارباك

(١) ديوان الشبيبي : ٢٢

(٢) ينظر الفنون الادبية واعلامها في النهضة العربية الحديثة، انيس المقدسي، ص ٤٤٧.

(٣) ينظر معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ، كامل المهندس ومجدي وهبة، ص ١٥.

السياسي في ذلك العصر فنهاية الدولة العثمانية لم تكن نهاية بحد ذاتها، وانما هي بداية بالنسبة لسعادة الشاعر فتصوره لحركة الفراشة بقوله:

شـــأنَ ألفرَاشَـــةِ وَاللّهيـــبِ فإنهـــا تَغشـــاهُ وَهُـــو مُســـببُ أحرّاقِهـــا

يشـــكُو الصَـــبَابةَ كُـــلَ يَـــومِ مـــدع وأحقنـــا دَعـــوَىّ لَهـــا مِـــن ذَاقهـــا

لـــو أنصـــفَتُ تِلـــكَ الحمَامـــةُ لَـــوعَتي نصـــبَت الخضـــابُ، ومُزّقـــتُ أطواقَّهـــا

يـــا هـــذه حتّـــى الغُصَـــوَنَ لَمّـــاً بِهـــاَ نَثِـــرتُ عُلِـــىُ وَجَـــهِ اِلثُـــرّىَ أورَاقَّهـــا

مثـــل التـــي مـــا الخفـــوق جناحهـــا اصـــبحت مـــرتكظ الحشـــا خفاقهـــا

دالا تحامـــــاه الطِّبيـــــب وعِلـــــة تجنـــي الشـــقاء فأصـــبحوا عشـــاقها [1]

هنا يصور الشاعر حاله كحال الفراشة التي تخشى اللهيب أو النار ولكنها في حقيقة الامر تبحث عن الضوء ، فحرقة الفراق التي اوجدها الشاعر بعد أن انتهى الاحتلال العثماني والذي يمثل الخير الوحيد للشعوب العربية التي كانت في بداية تكوين دولتها تبحث عن بصيص امل في اقامة الدولة، لكن المشاعر الجياشة والطابع الرومانسي الذي غلب الرؤية الذاتية للشاعر على الرؤية الموضوعية للتاريخ، أعطى انطباعاً بأن هذا الفراق هو فراق محب للمحبوب، والذي كان بعيد عن سيرة الشاعر، لكن إحساس الشاعر بالضعف أعطى بعداً للحظة الفراق، لأن في الحقيقة ضعف الدولة العثمانية أدى إلى اكتمال الشعور بالنشوة في ذات الشاعر، والتي تخالف منظور السلطة العثمانية للحدث.

ولعل هذا الشعور بالمرارة من فراق الاحتلال العثماني لم يأت من فراغ، إنما سبقه لحظات تاريخية خططت لهذه النهاية والتي كانت عبارة عن حروب وفوضى كانت مقدمة لهذه النهاية.

ففي قصيدة (من الحرب إلى الحرب) يقدم الشاعر بيان حربي يحاول أن يصور لنا المعركة وأهوالها وما قد تسببه هذه الحرب من فوضى وقتل ودمار بقوله.

---

(١) ديوان الشيبي .١٩

بكـرَتْ عَلَيْـكَ تريـكَ هَـوْلَ المَوْعِـدِ حــربٌ تــروح بنــا واخــرى تَعْتَــدِي

الخُطــوب إذا رَمَتْنَــا عــن فَــمٍ فــإلى فَــمٍ، أو مــن يَــدٍ فــإلَى يَــدِ

واذا اللّيــالي–وَالحــوادثُ جَمّــةٌ حَمَلَــتْ أَجِنَّتَهــا دَعَوْناهــا لِــدِى

مَمنِــكَ الغَــرْبِ البَعِيــدِ مَغــارُهِ نَحِــنّ إلــى المغــار الأَبْعَــدِ

غربٌ عَلَى قَسماتِ وَجِهْ وَلِيدِهِمْ مُتَبَــيّنٌ عُنــوانُ طِيــبِ المَولِــدِ((١))

إذ يشرعن الشاعر في عتبة القصيدة لما قد يحدث من ويلات ونكبات، فالكوارث كثر تشتعل فيها النار والموت من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، وقانون الحرب التي قد نسبت الدول الغربية هو في الحقيقة حرب عبثية تحاول ان تستعمر أرضنا وما يكون عليه من قتل وفتك وحروب، بقوله:

يَطْرُقــون شِــيبَ نَمِيــرُه مَخاضَــةَ رائِــحٍ مُفْتَــدِى

وذا الــذِّئابُ وَرَدْنَ مــاءً حَرَّمَــتْ أُسْــدُ الشَّــرَى غِشْــيانَ ذاكَ المَــوِرْدِ

اعْتَــدَى البــاغي علــى أوْطــانِهِمْ بَطَشــوا بــه وأَرَوْه عُقْبَــى المُعْتَــدِي

وَمــا أَتاكَ"ببُرْقَــهٍ" نَبَــأُ الَّتــى رَمَــتِ الــبلادَ بمُتْــرِقٍ وبمُرْعِــدَ

وتَقَــدَّمَتْ فتــأخرت ولــو أنهــا قامــت قِيامَتُهــا لَقِيــلَ لهــا أَقْعُــدِي((٢))

فالبغاة واعداء الدين والوطن كما يصفهم الشاعر أباحوا ارضنا، ولا يمكن ان نتصور ان هذه الحروب هي عبارة عن مسرحية لايمكن ان تنتهي الا بانتصار احد الطرفين، وضعف العثمانين هنا يصور لنا نهايتها قبل بداية المعركة، ولا شك في ان هذا

(١) ديوان الشبيبي:٥ .

(٢) ديوان الشبيبي: ٨.

البعد الذاتي الذي يحاول الشاعر ان يصنفه على لاعقلية الحروب هو في الاساس العقلانية التي اوجدها الشاعر في لحظة الحب و التضحية من اجل الوطن وتتجسد العلاقة بين الحب والحرب العقلية واللاعقلية في المعادلة بين الحالة الماضية والحالة الحاضرة الجديدة.

ففي قصيدة (الوداع) والتي هي وداع الدولة العثمانية يسجل الشاعر فيها فصولاً من الحكم العثماني على العراق من حالة الضعف التي كان فيها العراق لحظة الانكسار والاستعباد إلى لحظة انتصار ارادة الشعوب وهي ماجسدته الابيات الاتية في قوله:

إمْلِكوا الصَّبْرَ أنْ يَطيرَ شَعاعَا غَمَراتٌ وَيَنْجَلِين سِراعاً

فَرَّقَتْنَا وَفاتَها ثَمّ كالدَّرارِى تَفَرُّقاً وأجتماعاً

عَقَباتٌ لَيْسَتْ تُنالُ أجْتِيازاً وَثَنَايَا ليست اطِّلاعا

إنّما يَعْثُرُ الْكَسولُ،وينجو مَن سَعَى غيرَ عاثرٍ أو تَساعَى

ما أَسَغْتُمْ هَضْمَ العِراقِ ولكِنْ هِجْتُمُ للمِراقِ جِياعا

رَاحَ مَنْ يَقْضَي بتَرْكِ التقَاضِى وَأَتَى مَنْ يَكِيلُ بالصّاع صاعا[1]

فنهاية الدولة العثمانية وجدها الشاعر نهاية كل ظالم، وهي معادلة ربانية لا يمكن أن تذوب في عملية التاريخ وما قدمته الدولة العثمانية للشعوب العربية، فسَّرد الشاعر الاحداث التاريخية ذات الطابع السيري يمكن أن تجسد لحظة النشوة والانتصار التي عاشها الشاعر، ففي قصيدة (ثورة على الاتراك) التي يقول فيها

لا الجُبْنُ ثارِ فأَطْغانَا ولا الْبُخْلُ الثائِرُ الحِقْدُ بالاقْوامِ وَالَّدَخلُ

كان مابهمُ جُبْناً لَما انتَقَموا وفي طريقِ بُلُوغِ النِّقْمَةِ الأَجَلُ

سَّيْف قَرَّبَ منَّا كلَّ قاصِيَةٍ لا المَنطِقُ الفَصلُ مِن قوْمٍ ولا الجَدَلُ

(١) ديوان الشبيبي: ٢٥.

نُؤَمَّـــــل فـــــي إدرَاكِ غَايَتِنـــــا مِـــن السّياســـةِ؟ كَـــلَّا إنهـــا حِيَـــلُ (١)

فالحماسة هنا التي يمكن ان نطلق عليها حماسة ابي تمام إذ ابتدأ الشاعر في التأكيد على الحقد والظغان التي كانت تعتمر النفوس، فالثورة اصبحت بركان يحرق كل حقد واستعباد العثمانين للشعوب، ويمكن ان نقول ان الحس الشعبي في هذه القصيدة حرك وجدان الشاعر حتى ذابت الأنا في النحن والتي هي هنا (نحن) الشعوب وليست القبلية.

فالقصيدة في كل بيت ذات نزعة حماسية منصهراً الماضي المجيد والتليد للشعب مع الحاضر المؤلم الذي عاشته الشعوب العربية، فالانتقال الدائم للشاعر مابين الماضي والحاضر ما هو إلا شعور عاطفي يعيشه الشاعر من حالة إلى اخرى، فكلها عبارة عن حالة وجودية أحس الشاعر عن طريقها بان وجود البلد هو وجود وهوية وطنية حقيقية بدأت تتشكل في هذه الابيات الشعرية عن طريق التحام لحظة المواجهة للشعب مع تمرد ورفض الشاعر للواقع.

ولا يقتصر هذا الشعور العاطفي بمنطقة أو مكان واحد، ففي قصيدة (يوم المدائن وتل السور) تجسد حالة التنافر التي يعيشها الشارع العراقي ما بين هجوم الانكليز ومحاولتهم الدخول إلى بغداد ومحاولة العثمانيين الدفاع عن المدينة، فكان الطابع العام للمعركة هو الدمار والقتل، ولقد أرخّها الشاعر من منظور سيري يصف فيها الحالة الشعورية والعاطفية والمآسي والمجاعة والموت الذي اصبح يمثل حياة الشعب العراقي بقوله:-

أَعَـــــالِمٌ بالـــــذَّي وافَـــــتْ مَدائنُـــــهُ كِسْـــــرَى وإيوانُـــــه المْعقُـــودُ والسُـــورُ

يـــا مُوصِـــىَ النَّـــاسِ قُـــمْ للنـــاسِ اوصـــهم أنـــا ألوصَـــيةُ شـــيءِ عَنـــكَ مـــأثُورُ

أسـمَعَهمْ-بَعـدَ أنْ صَـحَتْ اصـفحوا-انتقمـوا وَقُـــلْ لَهُـــم-بَعـــدَ أن قُلـــتَ أعـــدُلوا

(١) ديوان الشبيبي:٢٧ .

بَعــدَ عِشــرِيّنَ قَرنــاً لَــمْ يَــزَلْ ذَلقــاً ألسِياســـــةَ وألبُهتـــــان والـــــزُورُ

ألمـــــدائن فـــــي أيامـــــك إنبعثَـــــتْ وفـــي مـــدائنك الســـبع الاعاصـــير ((١))

ان مانجده في هذه القصيدة هو ربط قدسية المكان (المدائن) التاريخية وما تمثله من احداث تاريخية كانت رمزاً لامبراطورية الفرس وما جسدته من قوة، فعند سقوط المدائن انتهت الدولة الفارسية، وهنا في الوقت الحاضر حاول الشاعر ان يرمز إلى انها تمثل بوابة دخول الانكليز إلى بغداد، فخسارة العثمانيين للمدائن هي بداية لخسارة بغداد وهي رؤية عسكرية ارتبطت بالسيرة عند الشاعر.

ولا يمكن ان ننهي هذا المبحث الا ونحن نحاول ان نؤكد بأن نصوص الشاعر الشعرية لم تتوقف عند شعر السيرة التاريخية والسياسية فحسب، بل تتعدى إلى مجالات الهية واخلاقية كلها تعبر عن خلجات النفس الانسانية وما يعتمرها من تقلبات ترتبط بمسميات سياسية دينية اجتماعية.

التاريخ هوية وأنتماء (٢)

إن التاريخ أو الارتباط التاريخي بالذاكر يمكن أن يسجل هوية انتماء لا يمكن نسيانها أو تجاوزها، وذلك واضح في قصائد الشبيبي إذ لا يمكن أن نتصور الارتباط بين الذات والتاريخ في قصائد الشاعر إلا بأنها لحظة اتصال أو أنحراف وجودي بين السيرة الذاتية والتاريخ الحقيقي والذي اشتغلت عليه حسب وصف الفلسفة الوجودية(٣) هو الهوية السردية الشعرية التي ينصهر فيها العرض بالجوهر، والذات بالتاريخ لتكون هوية وجودية لا تفرق شيء بين ماهو حقيقي وما هو ذاتي. فالانصهار مابين الافق الذاتي والافق

(١) ينظر: ديوان الشبيبي: ٣٠.

(٢) ينظر: الزمن – السرد– التاريخ، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦، ٦.

(٣) ينظر: الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، جان بول سارتر، منشورات دار الأداب، بيروت، ١٩٣٤، ٤٥٨.

التاريخي وتحويله في كثير من قصائد الشبيبي إلى عملية تتجلى فيها الهوية السردية للتاريخ لتمتزج مع روح وذاتية انا الشاعر.

ففي قصيدة (في العراق) لاتنفك العلاقة مابين الجانب الحياتي والجانب المتخيل الشعري، فلحظة انتقاد الشاعر للاوضاع الاجتماعية والثقافية في البلاد نتلمسها في قوله.

أَرَى مُهْجَتـــي بـــل مـــاءَ خَـــدِّكَ ذابَـــا مَعـــاً فهـــوَ لُطْفـــاً،وهىَ فيـــكَ عَـــذابَا

دَعـــا فاجـــابَ الوَجْـــدُ قَلْبِـــي فمالَـــه دَعـــاك فكـــان الضَّـــدُّ مِنْـــكَ جَوابـــاَ

نَهَيْـتُ فُـؤادى عـن هَـواكَ فمـا أنتَهَـى ونَهيتـــهُ عـــن بَـــوْةٍ فتصـــابَى

وعـــاتَبَنِي أَهْلـــي فقُلـــتُ أُحِبُّـــه وإنْ لَـــمْ يَـــزِدْ إلآ قِلِـــىً وعِـــذاباَ

تَغَابَيْـــتَ يـــا قَلْبِـــي ولـــيس بنـــافِع حِـذارَ الهَـوَى يـا قَلْـبُ أَن تَتَغـابَى (١)

يشرعن استهلال القصيدة على تدفق عاطفي روحاني يصور بين جدلية ذاكرة بعيدة وواقع مؤلم لا يمكن أن يتجاوزه مما أدى إلى حالة من التراجع أو النكوص(٢)، لان مهجتي والتي تشيءُ بالفرح والسعادة جفَّ ماؤها وكانت صدمة للأنا الشاعرة و ماحدث من تغير للدستور التركي لم يؤثر على الواقع العراقي، انما كان بمثابة قانون جديد للهيمنة والتسلط على رقاب الشعب العراقي بخاصة والعربي بعامة والاقليات الاخرى.

فكل الصفات من حيث الألم والفرح أصبحت تضاريس جديدة متشكلة في النص إذ أنه يمكن القول أن العلاقة بين الزمن الماضي والشباب، وحالة الحاضر يمكن أن تشكل التاريخ الذي يربط بين بداية الشباب والنضج ونهاية مرحلة تختزن كل الأحداث التي مر بها الشاعر.

---

(١) ينظر: ديوان الشبيبي:٦.

(٢) الموجز في التحليل النفسي، سيجمونت فريويد ترجمة سامي محمود علي، عبدالسلام النقاش، ص٢٤.

جَنَيْتُ شَبابي في بِلادِي كما جَنَتْ على القَلْبِ أهْوالُ البِلادِ فَشابا

أَلَنْتُ بها جَنْبَ الخُطوبِ شَدائداً وساهَلْتُ وَقْعَ الحادِثاتِ صِعابا

فثقَفْنَ أضْلاعي وكنَّ حَوانِياً وعاجَمْنَ أَعْوادي وكُنَّ صِلابا

وصاحَبْت مَنْ لا يَفْتأُون أّعادِياً وراضَيْتُ من لا يَبرَحونَ غِضابا

بِأّيَّ كِتابٍ أَم بأيّةِ سُنَّةٍ يُبيحونَ ظُلْمي سُنّةً وكِتابا؟

فثنائية الشباب والحاضر في قوله (جنيت شبابي)، إذ تتجلى في هذه الابيات مراحل زمنية ارتبطت بالشباب والتي توحي بالقوة والقدرة والعطاء، ولكن شباب الشاعر هنا قد شاب من اهوال الاحداث ومصاعبها لكون سلطة العثمانيين حاولت ان تروّض كل من الشعوب والاشخاص لصالح دعاتها، فالانتقاد الصريح لهذه الابيات هو سن قانون دستوري جديد وهو يمثل مرحلة جديدة للدولة العلمانية وهذا بدوره لم يغير من واقع العراق بشيء، لأنها سنة متجذرة عن العثمانيين من خلال ظلم الشعوب والاقليات، ولاشك ان حالة اليأس والضياع والبوح بمكنونات الانفس لم ترتبط فقط بضياع الحقوق فحسب بل، إنما صاحبها ضياع النفوس ايضاً بالسفر والغربة.

سَمِعْتُ به صَوْتَ الرُّقَّيِ وَأُوجَسَتْ به الَّنفسُ من أَغْلَى (فَرُوق) خِطابا

أَخَذْناه تَغْريداً فَردَّ به البُكا على إِثْرِ لأَرزْاءِ العِراقِ نُعابا

هنا في هذه الابيات يؤثث الشاعر لمكان يتخذ فيه من الاصوات والطيور وترحالها مرسالاً يحاول ان يرسم فيه عواطفه ومكنونات بلده فعملية تراسل الحواس هنا حولت المعقول إلى اللامعقول من خلال الالفاظ (ارسلت، وقفت، تصعد، فلم اتنفس)، وهي ألفاظ تعبر عن ضيق النفس وضياع الهمة وهذه كلها الفاظ ذاكرة تتداعى فيها ذهنية الشاعر بوصفها سيرية ذاتية تخالف التاريخ الذي هو في الاساس الشرعنة بوضع اوجدته

السلطة العثمانية، فجغرافية الشعور الوجودي بالنقص وعملية التكميل والتي يمكن ان نجدها في عملية اذلال الذات وتقوقعها يمثل فراغ في داخل النفس يؤدي إلى توسيع جغرافية الهنا حسب قول هيدكر على حساب الذات المتألمة.(١)

فالحب والحزن في الفلسفة الوجودية(٢) هي عملية نقصان دائم في الوجود يحتاج دائما إلى من يكمله والذي يمثل الحبيب والوطن، فالشاعر يتخذ من الوطن هوية وجوده فيندمج فيها العشق كانه ضلع ادم والذي يمثل انتمائه للوطن، فالتأكيد المستمر من قبل الشاعر على تشكيل جغرافية عاطفية توازي جغرافية الوطن تحاول ان تبرز لوحة جمالية تتخذ من الوطن مسكن وراحة ومكان ففي قوله.

جرى الماءُ شُهْداً في البِلادِ فمالَه جَرَى بأَخاسيفِ الجَزِيرَةِ صابَا

تَسيَّب لَمْ يَجْمَحْ فكان مُصيبةً وعَلَّلَ لَمْ يَنْقَعْ فكان سرابا

جداوِل لَمْ تَشْفِ الغَلِيلَ صوارِداً ولَمْ تُرَوِّ ظَمْآنَ الفُؤَادِ عِذابا

لئن لفظت ماء الفرات روبرعه فقد سلن من ماء السيوف شعابا

الاهل حياة في العراقين لم تَكُنَ طعانا يقفيه الردى وضرابا؟

يتجسد في هذه الابيات الشعرية المفهوم الباشلاري للمكان(٣)، ولاسيما إذ كان وطناً يسكن في الذاكرة، فالتدرج في ذكر خيرات البلد من (جرى الماء ... شهداً– اشجار– نباتات) كلها تدل على جغرافية الحنين و الحميمية والتي تمثل للشاعر ذاكرة (أُمَ) والتي تصور حالة الرغد والرخاء التي يشعر بها المتلقي عند قراءته لهذه الابيات، إذ يحدث نوع من الانتكاسة أو تعديل افق المتلقي، إذ إن هذا الخير الكثير الذي يصفه

(١) ينظر: في الفلسفة والشعر مارتن هايدرن، ص٧٥ .

(٢) الوجود – الزمن– السرد– فلسفة ميتافيزيقيا السردية، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٩٩٩، ١١٢.

(٣) ينظر: جماليات المكان جاستون باسلار، ص٤٥ .

الشاعر يقابله نوع من الدمار والحرب، فالخير الكثير اصبح مطمع الاعداء ونهب للدخلاء، ولعل من يقرأ هذه الابيات بقوله:

فـــلا زاد الا ان يكـــون غنيمـــة ولا مـــال الا ان يكـــون نهابـــا

ســالتك افــاق الســماء متــى اغتــدي عـــداؤك لـــلارض المريضـــة دابـــا؟

افـــي كـــل يـــوم تســـتفزين ثاقبـــا الينـــا وتســـتعيدين فيـــك شـــهابا

ذوات الـــذنابي كـــم قرعـــت بهولهـــا وان كنـــا ســـلما اروســـا وذنـــابي

هنا في هذه الأبيات يشعر الشاعر بانتمائه إلى هذا البلد العظيم والكبير فكلما عصفت عليه المصائب والانتكاسات زادته اصرارا على البقاء فهو كالعنقاء تخرج من الرماد.

واذ اردنا ان نبحث عن حكمة أو فلسفة الشاعر التي امتزجت بالأحداث التاريخية نجدها في الابيات الاخيرة

فَشَمَسِـــكِ اُنَ تَشِـــرقِ بخلّـــتَ فأَجفلـــتَ وبِـــدِرْك اْنِ يَطْلَـــع منُنَـــتَ فغَابـــاً

كـــاَنَ ذِكِـــاْءٍ مِـــنَ اُسَـــنَّةً نَوَرَهَـــا تَصَـــوِبّ نَّحَـــوَ الِعْـــاْلُمُيَنِ حرِابًـــاَ

كـــاِن الَبَرَاْيّـــاُ احُنَفَّتْهَـــاّ فَاْزُبًـــدَتَ وارســـلت النَـــوُرّ اْلَنقُـــيَ لَعَاْبـــاُ

كّـــاْنّ شُـــعَاعَ الَشَـــمْسّ غـــصَ بِـــهِ فَزَمجَـــرُ الغضـــا، وّمُـــاُجَ عَبُابّـــا

ولـــو لـــم تـــك الابعـــاد بحـــرا لمـــا طفـــت عليهـــا الكـــرات الناصـــعات حبابـــا ((١))

(١) ينظر :ديوان الشبيبي:٨

ان بنية السؤال هنا وهو سؤال قائم على ابعاد فلسفية وثقافية واجتماعية تتعاضد فيها الذاكرة التاريخية بمعرفة المتلقي بان بلد العراق هو صاحب حضارات كبيرة وارث عريق، فسماؤه تعبير عن شموخه الحضاري وهو أعلى من شموخ المعتدين.

فكل شيء هنا يعبر عن ابعاد واقعية تحاول ان تفلسف الحدث التاريخي التي يتمتع به الشاعر، والمسار العام يتكون من لحظة وجود العراق وهي لحظة وجودية للكون فحضارة وادي الرافدين هي بداية معرفة الكتاب قراءة وكتابة، وقانون الحياة سجلته هذه الابيات وكانه ولادة جديدة سيزيفية لا يمكن ان تنتهي(١).

فالدورة التاريخية للصعود والهبوط هي بالحقيقة بدايات جديدة لحضارات يحاول الشاعر ان يجدها في جينات بلده، فشروق الشمس وغروبها ليس معناه ضياع وانصهار اشراقة الشمس، بقدر ما هو تسجيل تاريخ جديد وديمومة عطاء لخيرات البلد، فاستشراق المستقبل لهذه الخاتمة هي بمثابة مصباح يضيء منهج وطريق لبناء الانسان مثل بناء الحضارة، فكل شيء في هذه الابيات تعبر عن الفحولة العراقية والرجولة التي حاول الاعداء ان يروضّوها عن طريق تقييدها واقصائها محاولة التهميش وما يمكن ان تمثله الحضارة العراقية من صيرورة عطاء دائم لايمكن ان تتوقف.

ان العطاء الفردي العراقي هو بمثابة حكمة سجلها الشاعر في البيت الاخير في محاولته لتصوير العراق بانه بحر كبير حاول الاعداء ان يسيطروا عليه، لان بالبحر تضيع الكرات الناصعات وتتحول إلى ارادة صغيرة (العراق) يضيع كل من يحاول ان يغزوه ويضيع في بحر حضاراته وابعاده الثقافية والاجتماعية، فصورة البيت الاخير تختصر انشودة سومرية تقوم على أساس أبعاد الحضارة العراقية البعيدة وأرض الامبراطورية التي انتكست على حدودها كل الغزاة والهمجين.

الخاتمة

ومما تقدم فإن النزعة العامة للمتخيل التاريخي لقصائد الشبيبي حاولت ان تقوم بعملية تذويب وامتصاص الحدث التاريخي وتحوير الحدث التاريخي وتحويله إلى ذات، فمرحلة الاتكاء على النص الموازي للعنوانات والذي يرتبط بمناسبة القصيدة قد أضفى بعدا جمالياً التحم فيه العنوان بالحدث التاريخي، فوضع عنوان للقصيدة هو في الحقيقة وضع عنوان لهوية الحدث وفلسفة نتائجه، فالعنوان المرتبط بالحدث عمل على تشكيل علاقة جدلية بين المتن والرأس، فكل شيء نابع من الكيان الواحد والذي جاء في ذاكرة الشاعر التي ارتبطت بالسيرة، فالجانب السيري بالبحث الثاني هو في الاساس محاولة اعادة انتاج القراءة للسيرة وفق سيناريو يضفي بعداً دراميا قائم على فعل العاطفة والمشاعر المتسلسلة، فالجانب السيري هو نزعة ذاتية تقوم على عملية شعرية واضفاء الخيال على الواقع، والذي يمكن ان نجده لامس عواطف ومشاعر المتلقي.

فالعلاقة التي حاول الشاعر فيها أن يربط التاريخ بالخيال والسيرة تحولت إلى كتلة واحدة يمكن ان نسميها الذات عينة كالتاريخ، فالتاريخ هو الذات، والذاتية هو التاريخ، فالمنشور ذات الابعاد الثلاثية التاريخ والذات والخيال اشتغلت كلها بوصفها بوتقة واحدة شكلت كتلة جوهرية ثابتة اضفت هوية سردية متخيلة للنص الشعري، ابعدته عن الواقعية التاريخية والتي يمكن ان تمثل صفة سلبية قد وقع فيها شعراء ذلك الزمن في فلسفة التاريخ عن طريق انصهاره بالعاطفة والخيال إذ إن الفعل هنا الدرامي يخاطب العواطف ولا يخاطب العقل/ لان مخاطبة العقل مختصة بالجانب الارشيفي للتاريخ.

فالخاتمة التي حاول الشاعر ان يوصلها للمتلقي هي ان هوية العراق واحدة دائمة الصيرورة وجوهرها تمثل بذرة تاريخية وحميمية لحضارة لا تتغير مهما جار عليها الزمان.

Historical illustration in Al-shbeebi Poet

Dr.Reem Mohammed Tayeb AlHaffoudni

Abstract

Many studies have focused on the political side in Al-shabeebi's poem, but in this research, we want to integrate policy in history and literature for Al-shabeebi because all the poet is essentially political, tries to give a romantic dimension to his political program.

It is only an attempt to legitimize the romantic dimension of psychological spirits warfare on his political program, there is no doubt that the attempt to establish a historical fantasy in the poems of Al-shabeebi is only an attempt to roll into the dimensions of deep poet, which was formed in the three is (the imagination and history and self(corresponding poetic text historical and biography and selfmemory poet had melted into history with everything in his poems is taking place (home, belonging, sacrifice).

He emphasized on more than one occasion that Iraq has the will of and sustainability of permanent bid and it does not end and never Fade in his weakness, lies an strength o because in the heart of the challenge shows metal and originality of the homeland, and this was confirmed by the US poet in more than a slogan poems search came the form of introduction Promo Reehan idea of research and then addressing several aspects of the first Al-shabeebi Al- shabeebi poet political and most important positions, and we talked about his life as well as the political role of the second historical focuses historic poetic text.